نفحات من سورة الدخان: اليقين بالله ربا

كتبه محمد الصغير الثلاثاء ٠٨ محرم ١٤٤٣

هل تعرف الكاتب فلان بن فلان؟

لا, لا أعرفه, من يكون؟

هذا كاتب شهير عنده كتب قيمة جداً, هذا أحدها.

أنت في هذه اللحظة لم يعد عندك شك في وجود هذا الكاتب, فكتابه بين يديك, ولكنك لست متأكداً من كونه كاتب جيد في مجاله حتى تقرأ له.

تأخذ الكتاب, وتقرأه, وتجد بالفعل أنه كاتب جيد, لذلك تكون سعيدا بالتعرف على هذا الكاتب والانضمام لقائمة المعجبين به, وربما تخجل من نفسك يوم كنت لا تعرفه.

ما سبق بديهي جداً ولا أحد يعترض عليه إلا إذا كان مُكابرا, فالكاتب موجود قطعا, بدليل كتابه, وهو كاتب جيد بدليل كتابته, وأصلا المثقف يخجل من جهله به, لأن جهله به يدل على جهله.

إذا اتفقنا على ما سبق, فكيف يكون الأمر بالله سبحانه فاطر السماوات والأرض؟!

لا شك أنه اليقين المطلق به سبحانه رباً واحدا لهذا الكون, فهو الذي خلقه من عدم, لذلك إنكاره محض جهل مفرط ناتج عن مرض نفسي عُضال, لأنه لا يمكن الاعتراف بالكاتب نظرا لكتابه, ونكران اللّٰه والكون كله من خلقه.

أما عن عظيم إبداعه وقدرته فلا أدق ولا أروع من خلق اللّٰه سبحانه, وأنفاس المرء خير شاهد, وهذا ما أشار إليه ربنا عز وجل في قوله:

‹ رَبِّ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَما بَينَهُما إِن كُنتُم موقِنينَ ›

الدخان: ٧

‹ الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا ما تَرى في خَلقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ فَارجِعِ البَصَرَ هَل تَرى مِن فُطورٍ ›

الملك: ٣

فلا يوجد يقين يمكن أن يحصل عند امرء أكثر من اليقين على الله رباً، والذي بدونه لا يمكن للمرء أن يتيقين من أي شيء.

حين تحدثت عن الكاتب وعن إبداعه، قطعا كنت تعيش قبل العلم به كشخص، وككاتب، فمعرفته ليست شرطا أساسيا في حياتك، وقد تعيش حياتك كلها دون أن تحتاج إليه.

أما بالنسبة لله فالأمر مختلف جداً، فهو ليس فقط رب السماوات والأرض وما بينهما، هو ربك أنت أيضا، وهو من يملك حياتك وموتك، وحياة من قبلك ومن بعدك وموتهم، وهو المفتقر إليه في كل لحظة:

﴿ لا إِلهَ إِلّا هُوَ يُحيي وَيُميتُ رَبُّكُم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلينَ ﴾

الدخان: ٨

فكيف تكفر بعد كل هذا، وتتخذ إلها غيره؟!

أبك جنون أيها الإنسان؟!

أم أنك لا تسمع، ولا تعقل، ولا تبصر؟!

﴿ قُتِلَ الإِنسانُ ما أَكفَرَهُ۝مِن أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ۝مِن نُطفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ۝ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ۝ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقبَرَهُ۝ثُمَّ إِذا شاءَ أَنشَرَهُ ﴾

عبس: ١٧-٢٢

للأسف الشديد رغم كل ما سبق من آيات بينات، رأيناها في المقال السابق من هذه السلسلة، وفي هذا المقال، يظل الإنسان معرضا مستكبرا مستهترا غير مبال:

﴿ بَل هُم في شَكٍّ يَلعَبونَ ﴾

الدخان: ٩

نعم في شك لأنه لا يتصرف بناء على ما يفرضه اليقين بالله من جدية وحزم، فهو كمن يلعب.

يتعامل مع الأوامر الربانية بنوع من العبثية التي تتفاوت من شخص لآخر، وحتى في أوساط من ينتسبون للإيمان، تجد من يرى أن أوامر الله ليست بتلك الجدية التي تجعل معصيتها أمرا جللا.

ولو عرفوا الله حق معرفته، لعلموا أن أمره:

‹ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ›

الطارق: ١٣-١٤

ومن ثُم علموا عظمة معصيته، وخطورتها والعياذ بالله.

أخيرا ينبغي لي ولك التريث وتأمل في بديع خلق الله، والتفكر فيه مطولا لعلنا نستفيق من هذه الغفلة التي نعيشها ولا حول ولاقوة إلا بالله.